الباب التاسع

برنارد شو فى نظر الشرقيين

للكاتب الصينى الكبير س . ا . هسنج

عند ما أتيت إلى هذا البلد ، كان أملى الوحيد أن أرى ثلاث شخصيات هامة هي : جلا سورثى وبارى وبرنارد شو .

ولكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، إذ مات الأول فى مدى شهر واحد من وصولى إلى لندن ، وأصيب الثانى بمرض عضال أقعده ثم نقل على أثره إلى مستشفى خاص . أما الثالث فغادر لندن ليزور الصين . فهل سافر إلى هناك ليزورني أو ليراني؟

إذن فيا للأسف ؟! . ولكنه عندما عاد إلى انجلترا وتقابلنا ، قال لى بصراحة :

إنه ذهب إلى الصين ليرى السور الاعظم ؟!

ثم تحدث إلى صديق لى ، وصارحته بأن من العسير على الاعتقاد بأن صاحبنا شو سافر إلى الصين ليري السور الأعظم ، لأن فى الصين اربعمائة مليون نفس تستحق منه أن يراهم ويطلع على أخبارهم . ولا شك أن بينهم نفرا أهم من السور الأعظم ! .

وطمأننى صديق بإقناع فلسفى وجيه فحواه أننى مادمت فى لندن ، فليس فى الصين رجل واحد أهم منى ليراه شو أو ليرى غيره !!

وقد طمأن خاطري هذا الاقتراح الطريف رغم خلوه من الصدق ، وكيف يكون فيه ذرة من الصدق مثل هذا الخاطر العجيب ؟ ! !

وكثيراً ما كنت أسمع من بعض أصدقائى مقدار أهمية مقابلاتهم المتعددة مع برنارد شو قالوا إنهم فاتحوه وناقشوه فى موضوعات هامة ذات شأن خطير . وأعجبوا به وببلاغته وسرعة بديهته ، حتى أننى وقفت على كل ما كان يدور فى مثل

هذه المناقشات ، وعندما سنحت لى الفرصة بالجلوس إلى برنارد شو سألته : هل يذكر مقابلته لمثل هؤلاء الصينيين من الكتاب والأدباء ، فسرعان ما هز رأسه بحزن وقال : لا ! !

ثم ذكر لى حادثة طريفة فحواها أن شخصا قابله مرة ، وكان كاتبا صينيا ، سلم له نسخة مترجمة لإحدى مسرحياته المشهورة . وقال برنارد شو : إنه صعق لوقاحة الرجل وسلاطة لسانه . وكانت بجواره زوجه « مسز شو » التى اعتادت دائما أن تكون ، فأضافت بسرعة « إن هذا الرجل لابد أن يكون يابانيا فهـــدى بالصينيين قوم بسطاء متواضعون »

وهناك رجل آخر فى الصين تذكره برناردشو ، ولكنى لم أسمع منه رأيه فيه . وكان ذلك فى احتفال دعى اليه برنارد شو خصيصا ، حتى قدم اليه استاذ معروف . وعندما قيل له إنه من علماء رجال التربية وكبارها ، هز برنارد شو على يديه وهو يقول « كان الله فى عونك ! »

وقد وصف لى كثيرون من أصدقائى هذه الحادثة الطريفة ، وأبدى كل رأيه فيها بل العجيب أن هذه الحادثة سرعان ما انتشرت وعرفت فى جميع أنحاء الصين ، وعلى الأخص فى الدوائر الثقافية . ولست أدرى إن كان برنارد شو لا يزال يتذكر هذا الرجل أم لا !

من مساوىء الشهرة ، إذا كنت من أربابها ، أن كل إنسان يعرفك أو لا يعرفك يذيع عنك أخباراً كثيرة . ولن يمكنك أنت ، مهما كانت درجة ذكائك ، أن تتذكرهم فرداً فرداً ، والحقيقة أن كثيراً منهم لا يعرفونك ، رغم أنهم يعتقدون أنهم يعرفونك تمام المعرفة ... من هنا يكثر القيل والقال ، وتصبح حديث الناس ، كل له رأيه الخاص فتتعدد المتناقضات وتشاع حولك الأكاذيب ! !

وكذلك حال برنارد شو فى العالم ، فهناك كتب كثيرة كتبت عنه ، غير آلاف المقالات التى نشرت فى الصحف السيارة حوله ، الشىء الذى لا يمكن حصره أو معرفة مداه . .

عند ما يريد أحد مشاهير الرجال أن يخلد نفسه بين مصاف الكتاب العظام فإنه يقدم للعالم إنتاجه الأدبي ، ليضاف إلى مجموعة أعمال غيره من الأدباء المعاصرين والعباقرة . وقد يمكن لذلك الرجل أن يعطى للمؤلف ـ الذى ينتوى تأريخ حياته باللغة التى يريدها ـ صورة واضحة المعالم عن نفسه كأنه يقف أمام رسام أو مثال وهو فى هذه الحالة ، بدل أن يجلس أمام الرسام أو المثال يمد الكاتب بكل ما لديه من معلومات وذخائر ، وعلى ضوء هذه المعلومات يمكن للمؤلف أن يعبر فى أسلوب نادر عن قصة حياة ذلك الرجل العظيم الذى يكتب عنه ..

وهناك مثل مشهور قاله رجل عظيم خواه أن الناس فى هذا العالم ينقسمون إلى قسمين : قسم يعرف الكاتب معرفة حقة ، وقسم لا يعرفه على الإطلاق .

ولكن برنارد شو لا يعتد بهذا الرأى . وقد يكون من الأصح أو الأجدر أن يقال : إن الناس ينقسمون إلى فريقين : فريق يحب ذلك الرجل وفريق لا يحبه . لأنه من العسير علينا أن نجد فرداً واحدا فى العالم لا يعرفه ـ ويقصد برنارد شو ـ ومن المفهوم أن من قرأ له أربعين أو خمسين رواية قد لا يغيب عن ذاكرته اسمه على الإطلاق . .

وليس من الهين أن ينسي الإنسان ما قيل عن برنارد شو من مفتريات وما أذيع عنه من أكاذيب. بل إن برنارد شو هو الوحيد الذى يذاع عنه أكبر قسط من المتناقضات . وكثير من الأدباء لا يزالون يستغلون اسمه إلى أبعد درجات الاستغلال ولأضرب لذلك مثلا فأقول إن كثيرين منهم عند ما يجدو أن المستمعين بدأوا يملون ويتململون ويضيقون ذرعا بالمتحدث سرعان ما يذكرون قولا لبرنارد شو أو نكتة من نكاته اللاذعة تدخل عليهم السرور . وفى كثير من الأحايين يكون القول أو النكتة من صنعهم ومن محض اختلاقهم . . .

إن قيمة المؤلف أو مقدرته لا تظهر إلا فى كتابته . وهذا حقيقة. قول لا يقبل المناقشة أو الجدل ، ولكنى أحب أن أضيف أنه يجب على كل ناقد ومطلع وكاتب أن يعرف المؤلف الذى ينوى الكتابة عنه . . .

فلبرنارد شو رأى فى شكسبير ، وهو أفضل من شكسبير بكثير . . . وقد يدعى

البعض أن مثل هذا القول دليل الغطرسة والكبرياء، لأن شكسبير لم تخلق الأجيال أحا له بعد. وبرنارد شو عند ما يدعى أنه أفضل من شكسبير عذره فى ذلك أنه عاش أكثر منه. بل ان كثيرين من الناس يعتقدون بأن « باكون » هو شكسبير أو أنه رجل آخر ذلك الذى كتب آثاره. وقد يكون هذا الرأى صحيحاً، ولكن الذى يدعى بأنه أفضل من شكسبير يعده الناس اخرق ضعيف الحيلة. ولكنى عندما قابلت شو لاول مرة، دهشت لوفرة أدبه وحسن سلوكه وضيافته للغرباء. جرت العادة أن يكون الضيف الصغير السن أكثر أدبا مع المضيف الشيخ، ولكن برناردشو كان على العكس تماما. يصمم على فتح الباب ويجلسنى فى مقعدى ويساعدنى على ارتداء معطفى!

وبرنارد شو لا يتكلم طوال الوقت أو يسيطر على الحديث كما يسيطر على المسرحيات في كتاباته. وإن كان حديثه لا يخلو من الكلام عن نفسه.. وحتى فى حديثه عن نفسه تجده متواضعا حيا...

أذكر أنه فى إحدى الاجتماعات الهامة التى حضرها شو كشف لنا النقاب عن سر مهاجمته لشكسبير، وأنه كان يفعل ذلك للقمة العيش لا أكثر ولا أقل.. وهذا ما قاله بالحرف الواحد يومذاك « كان علينا أن نهاجم الدراما القديمة بكل قوانا لنجد مسرحياتنا وروايانا مسرحا جديدا!... »

وبرنارد شو سريع النكتة، حاد الذكاء، لا تتركه سرعة البديهة ولا تبرحه النكتة المستملحة فى حديثه.

أخذت مرة صديق الجنرال « كيوى » لزيارته. وما إن جلس اليه صديقى حتى ابتدأ يبدى إعجابه وإطنابه لبرنارد شو. لا سيما لحيته البيضاء وعيناه الزرقاوين وجبهته العريضة، وأنفه الدقيق وفمه وأسنانه. وكان الزائر على وشك الاسترسال فى مديحه عند ما فاجأه برنارد شو بهذا السؤال...

— أتعجبك أسناني؟ إنها لا شك ستعجبك!

ثم مد يده وأخرج طقم أسنانه الصناعى وقدمه إلى الجنرال فى كفة يده!! وقد أخذت الجنرال طبعاً المفاجأة، وسكت عنى مضض.. ثم عاد وحاول أن يسأله عن سر قوته وحفظه لكيانه رغم تقدم سنه، فأجابه برنارد شو: بأن ذلك كان عليه سهلا

ميسوراً ، فيجب عليك ألا تدخن أو تحتسى الخمر أو تأكل اللحم . أو تعرف النساء ،

وكان دور برنارد شو أن يسأل الجنرال كيوى سؤالا أو سؤالين ، وأراد أن يعرف ما الذى انتوى الجنرال كيوى عمله ، كرئيس أعلى للبعثة العسكرية الصينية فى انجلترا ، أثناء زيارته وإقامته فى بريطانيا ، فأجابه « كيوى » بأن الهدف الأسمى لهذه الزيارة أو الإقامة أن يحسن من العلاقات الإنجليزية الصينية. فأجابه برنارد شو بسخريته المعهودة ـ هذا سيتم بسهولة . . لأن بريطانيا العظمى أحسن دولة للتعاون مع الدول الأخرى ، ما دام هذا التعاون من صالحها مائة فى المائة ! !

* * *

يقول كثير من الناس إن لبرنارد شو مزاج فاسد أو جموح . ويقول آخرون إنه رجل غريب الأطوار ، ومن العسير عليك أن تعرف مزاجه عند ما تقابله وتتحدث اليه . فقبل أن أطأ أرض انجلترا كنت دائما أتخيل ذلك الرجل من صورة رأيتها له سابقاً . وقد وقف على أم رأسه فى وضع هزلى ، وإذ كنت دائما صديقاً للسير ماكس بيربوم فإننى أعتقد أن برنارد شو يفعل ويقول دائما عكس ما فعل . ولعل مقابلتى الأولى له حققت هذا التنبؤ وأقرته . فقد قال لى إنه ذهب إلى أحد مسارح الصين ورأى هنالك مائة شىء وشىء كانت تجذب أنظار الناس جميعهم لا سيما الغرباء منهم . وكنت أتوقع منه هجوماً عنيفا على مسارحنا وعاداتنا . ولكن رأيه حيرنى لأنه لم يأت من الجهة التى كنت أنتظر أن يأتى منها . . .

إن هدوء برنارد شو ومتانة أخلاقه بددا ما كان عندي من شكوك وأوهام عن مزاجه الحاد الذى أشيع عنه .

لقد أفادنى هذا الرجل بتجاربه ، وأضاف إلى معلوماتى الكثير . . وبرنارد شو فوق كل ذلك عالم ومفكر وفيلسوف . بل إنى أعده فيلسوفا أكثر منه كاتب دراما. وإن مسرحياته الحديثة لعسيرة الفهم على الجمهور إذا كانت موقعة بإمضاء كاتب آخر أو لرجل غير برنارد شو . وكلها تطفح بالأسرار الفلسفية والمجادلات الأفلاطونية وتجد أشخاص هذه المناقشات والمجادلات من الملوك والمطارنة والعلماء والجنود

كلهم يتحدثون فى لباقة وسرعة بديهة وذكاء لا تفوتهم النكتة كبرنارد شو نفسه ..

وبما أنه يرى الأشياء من الناحية الفلسفية أكثر مما نراها نحن ، لهذا نجد أن شخصياته كلها شخصيات شاذة غريبة الأطوار. ويتسرب إلينا الشك فى أن المؤلف نفسه غريب الأطوار شاذ الرأى والتكوين . .

وقبل أن يصبح برنارد شو كاتباً ألمعيا عظيما كان كفاحه أعظم وأعم ، وكانت أحسن كتاباته هى ما كتبها فى بدء أيامه الأولى . بدأ كفاحه فى كتابة الدراما والمسرحيات وكلها اليوم تشهد بخلوده وتنطق بعظمته وعلو همته . ظل برنارد شو قرابة ربع قرن من الزمان مجهولا لا يقرأ له إنسان . . ولكن حيويته الدافقة وخروجه على التقاليد ومعالجته لأهم الموضوعات التي شغلت الرأى العام ردحا طويلا من الزمن لفتت اليه الأنظار وجعلت الناس تتهافت على مسرحياته يلتهمونها التهاما . . .

وعند ما تقدم برناردشو فى السن وقد أنهكته الحياة، والعمل المتواصل الشديد ، ركن إلى الراحة والهدوء. فخلد فى أذهان الناس وعدوه أكبر وأعظم كاتب للدراما ظهر بعد شكسبير . . .

برنارد شـــو فی بدء شیخوخته

عيد ميلاد سعيد

بقلم الديوس هكسلى

كان ايرازمس أكبر بائع فى القرن السادس عشر . كما أن أوربا كلها قرأت أعمال فولتير .

وكذلك استمع العالم وقرأ لجورج برنارد شو .

وهكذا تظل الأعمال أو الآثار الخالدة على الدوام خالدة ، وتحتل فى النفس مكانة كبيرة .

وكذلك كل من كان ذا مكانة فى الهيئة الاجتماعية تجده دائماً محبوباً .

ولكن مما يؤسف له أن الناس لو استمعوا إلى نصائح ايرازمس لما وجدت الحروب الدينية طريقها إلى المجتمع الحديث .

ولو عملوا بما نصح به اليهم فولتير لما كانت هناك ثورة فرنسية ولاغزو بونابارتى ، ولو لم يصفقوا لمسرحيات برنارد شو ويضحكوا ويصخبوا من كلماته ومقدماته اللاذعة ، واستمعوا إلى أقواله بحق ودرسوه دراسة وافرة لهان الأمر وسهل عليهم العسر .

إن التاريخ قليل بعباقرته ، قليل بأفراده الأفذاذ الذين سموا بالفكر إلى أسمى مراتب الكمال .

فلندعو الله جميعاً أن يعيد على برنارد شو أمثال هذا العيد السعيد ليملأ جنبات الدنيا من فيض حكمته الغزيرة التى لا تعرف حدوداً ولا تقف عند حاجز أو مانع .